«نظرة جديدة الى المعجم العربي »(*)

— القسم الأول —

مراحل تشكل نظام المعجم العربي واكتماله

الدكتور جعفر دك الباب
الأستاذ في معهد اللغة والأدب العربي
جامعة الجزائر

في المقالة السابقة وعنوانها « مراحل نشأة الكلام الانساني »(1) حددنا المراحل والأطوار التي مرت بها نشأة الكلام الانساني بالاستناد الى المنهج التاريخي العلمي الذي استنبطناه من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية الذي بلوره ابن جني وعبد القاهر الجرجاني في نظريتين لغويتين متتامتين . وقررنا أن نشأة الكلام الانساني مرت بطورين :

1 — الطور الأول : في الصيغة اللغوية — الأصل للكلام الانساني توجد علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة محاكاة أصوات الحيوان أو الطبيعة . والصيغة اللغوية — الأصل هي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث والمستخدمة في خبر غير ابتدائي .

ومر هذا الطور بمرحلتين :

أ — المرحلة الأولى : كانت فيها الصيغة اللغوية — الأصل عبارة عن محاكاة لأصوات بعض فصائل الحيوان التي تمتلك جهازا قريبا من جهاز التصويت عند الانسان القديم . لذا كانت تلك الصيغة تلفظ في مقطع صوتي واحد .

ب — المرحلة الثانية : ظهرت فيها صيغة لغوية — أصل جديدة نتيجة محاكاة أصوات فصائل أخرى من الحيوان لا تمتلك جهازا للتصويت قريبا من جهاز التصويت الانساني ، و نتيجة محاكاة أصوات الطبيعة . لذا كانت الصيغة اللغوية — الأصل الجديدة لا تلفظ في مقطع صوتي واحد ، بل تلفظ في أكثر من مقطع صوتي .

2 — الطور الثاني : في الصيغة اللغوية — الأصل للكلام الانساني لا توجد علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول والعلاقة بينهما اصطلاحية . والصيغة اللغوية — الأصل هي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الأمر) للشخص الثاني . ومر هذا الطور بمرحلتين :

(*) طرحت بعض النقاط الرئيسية للنظرة الجديدة الى المعجم العربي في بحث ألقيته في (ندوة تعليم اللغة العربية) التي نظمها اتحاد الجامعات العربية في الجزائر (7 — 9 أفريل 1984) وعنوانه « دراسة صوتية لنظام المعجم العربي»

(1) المنشور في العدد (25) من « اللسان العربي » .

أ ــ المرحلة الأولى : كانت الصيغة اللغوية ــ الأصل تلفظ فيها في مقطع صوتي واحد .

ب ــ المرحلة الثانية : ظهرت فيها صيغة لغوية ــ أصل تلفظ في أكثر من مقطع صوتي .

وسنعمد أدناه الى دراسة المعجم العربي ، على ضوء تلك المراحل والأطوار التي مرت بها نشأة الكلام الانساني ، باستخدام المنهج التاريخي العلمي في دراسة المادة اللغوية للعربية .

يشتمل النظام اللغوي بشكل عام على نظام صوتي ونظام صرفي ونحوي (قواعدي) ومعجم مفردات اللغة . وتوجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية في علاقة تأثير متبادل فيما بينها ، ويحتل مستوى البنية الصوتية فيها مرتبة المستوى الأساسي والموجِّه بالنسبة لبقية المستويات . ولدى البحث في النظام الصوتي للعربية تبين أن أصوات المد هي اشباع للحركات ، وأن الحركات ليس لها وجود منفصل عن الأصوات الصامتة التي تلفظ قبلها وتتصل بها [2] . وقد انعكست هذه الخصائص المميزة للنظام الصوتي العربي بوضوح على المبدأ الذي يقوم عليه المعجم العربي ، وتجلى ذلك في الرجوع الى الأصل الثلاثي (أو الرباعي) المجرد من حروف الزيادة والمؤلف من أصوات صامتة فقط تشكل المادة الأصلية للكلمة ومشتقاتها .

1 ــ هل المعجم العربي مجرد قائمة من الكلمات ؟

يقوم المعجم في اللغات الأوربية على تصنيف المفردات بحسب تسلسلها الأبجدي ، لذا يعتبر قائمة من الكلمات التي لا تنتظم في نظام واحد . أما المعجم العربي فلا يقوم على تصنيف المفردات بحسب تسلسلها الأبجدي ، وإنما يقوم على مبدأ آخر هو تصنيف الألفاظ العربية بحسب موادها وأصولها . ويحدد الاشتقاق الصغير (أو العام) أصل الكلمة أو مادتها الأصلية . فهل يعتبر المعجم العربي قائمة من الكلمات ــ الأصول التي لا تنتظم في نظام واحد ؟ يرى الدكتور تمام حسان أن « اللغة العربية مكونة من ثلاثة أنظمة ــ نظام صوتي وصرفي ونحوي ــ وقائمة من الكلمات التي لا تنتظم في جهاز واحد » [3] .

يرتبط كل أصل ثلاثي في اللغة العربية بمعنى عام واحد على الأقل وضع له . ويتحقق هذا المعنى في كل كلمة توجد فيها الأصوات الصامتة الثلاثة مرتبة حسب ترتيبها في الأصل الذي أخذت منه . ويحدد الاشتقاق الصغير أصل الكلمة . والاشتقاق الصغير هو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف (الأصوات الصامتة) وترتيبها . ويهم بحثه في علم الصرف . وبحث علماء العربية في نوع آخر من

---

(2) بهذا الصدد ارجع الى مقالاتنا التالية :
أ ــ « الدراسات الصوتية في التراث اللغوي العربي » المنشورة في مجلة (المعرفة) بدمشق ــ العدد 234/آب 1981 .
ب ــ « الصوامت والصوائت في العربية » المنشورة في « اللسان العربي » العدد 19 (1) 1982 .
ج ــ « الساكن والمتحرك في علم اللغة العربية » المنشورة في « اللسان العربي » ــ العدد 1983/20 .

(3) « اللغة العربية ــ معناها ومبناها » ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ الطبعة الثانية 1979 / ص 40 .

الاشتقاق سموه الاشتقاق الكبير . وهو أن يكون بين اللفظين تناسب في الحروف (الأصوات الصامتة) والمعنى دون الترتيب ، كما في (جذب) و (جبذ) . وقد بحث ابن جني في التقليبات الستة للكلمة الواحدة وأشار الى أنه يجمع بينهما معنى مشترك . كما بحث علماء العربية نوعا آخر من الاشتقاق سموه الاشتقاق الأكبر . وهو حين يكون بين اللفظين تناسب في المخرج ــ نحو (نهق) و (نعق) ــ فمعنى هذين اللفظين متقارب وكل منهما يدل على صوت منكر ، ولا اختلاف بينهما إلا بالحرف الثاني ، وهو حلقي في كليهما .

وهكذا نرى أن المعجم العربي لا يتألف من مجرد قائمة من المفردات ــ الأصول ، بل يؤلف كل أصل منها أسرة (أو عشا) من الكلمات التي تشتق منه . وتشتمل كل كلمة في العش على نفس الأصوات الصامتة مرتبة حسب ترتيبها في الأصل . فالمعجم العربي ــ والحال كذلك ــ نظام مؤلف من مجموعة أنظمة ، لأن كل أصل فيه يؤلف بدوره نظاما كاملا . ولا يظهر نظام المعجم العربي فقط لدى طرح سؤال حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين مجموعة الأصوات الصامتة التي تتألف منها الكلمات في العش الواحد وبين معانيها ، بل يظهر أيضا لدى طرح سؤال أوسع حول وجود علاقة مناسبة طبيعية حين عدم التقيد بترتيب الأصوات الصامتة التي تتألف منها الكلمات في أكثر من عش ، أو حين يتم التقيد بترتيب تلك الأصوات الصامتة بنوعها العام فقط .

2 ــ نظرية الأصل الثنائي :

كتب الأستاذ زكي الأرسوزي : « كنت أتساءل هل الأمة محصلة للظروف التاريخية ؟ أم هي عبقرية تبتدع مظاهرها ومؤسساتها كاللغة والفنون والعرف والأخلاق ... الخ وتوجهها في الوجهة التي ترفع بأبنائها نحو غاية مثلى ؟ وبينما كنت متحيرا في أمري مترددا بين دراسات الفن والتشريع ، علّي أجد فيها قبسا يخرجني من الحيرة ، اذا بصدفة سعيدة تدلني على مكمن السر : اللغة . وأما الفرصة السعيدة فهي أنني عندما كنت أتصفح القاموس رأيت الصلة بين الأفعال المتسلسلة ذات طبيعة مزدوجة : صوت وخيال مرئي . وعندما رأيت الأفعال تنتهي بصوت طبيعي كصوت خرير الماء مثلا ، وبخيال مرئي هو الماء في مجراه ، هو السبب في حدوث الصوت ، أدركت السر في نشأة اللغة ودهشت لمّا بدا لي شمول المبدأ الكلمات العربية جميعها » (4) .

وكتب الأستاذ محمد المبارك حول النظرية الثنائية أنه توجد كثير من الألفاظ التي تشترك في حرفين دون الثالث وفي معنى عام يجمعها وينظم مفرداتها . وبذا يتم اكتشاف صلة جديدة بين المجموعات الثلاثية التي تشترك في حرفين من أصولها وفي فكرة كلية تجمعها ، وتتكون بذلك مجموعات ثنائية كبيرة . ولتعليل هذه الصلة نجد أنفسنا أمام عدد من الاحتمالات :

(4) المؤلفات الكاملة ــ المجلد الأول ــ مطابع الادارة السياسية للجيش ــ دمشق 1972 / ص 54 ــ 55 .

أ ــ يمكن القول أن الأصل في اللغة هو المجموعات الثلاثية . فالمادة الأصلية في الكلمات العربية تتألف من حروف ثلاثة ، ولكن قد يعتري أحد هذه الحروف تبدل صوتي بتوالي الأزمان أو باختلاف القبائل والبيئات ، ولذلك تتكون هذه المجموعات الثنائية ويكون هذا الاشتراك بين المجموعات الثلاثية في حرفين دون ثالث. ولكن هذا القول لا يمكن تعميمه .

ب ــ ويرى عدد من الفقهاء قديما وحديثا أن الألفاظ العربية ترجع في منشئها التاريخي القديم الى أصول ثنائية زيدت حرفا ثالثا في مراحل تطورها التاريخي . وقد جاء هذا الحرف الثالث منوعا للمعنى العام الذي تدل عليه الأصول الثنائية . وأكثر الذين يقولون بالأصل الثنائي للألفاظ العربية يقولون كذلك أن هذه الأصول الثنائية نشأت عن حكاية الأصوات الطبيعية المقارنة للفعل أو الحدث الذي تدل عليه تلك الأصوات . ويتفرع عن هذا الرأي القول بتقارب معاني الألفاظ لتقارب أصواتها . وقد عقد ابن جني في (الخصائص) فصلا خاصا عنوانه (باب في امساس الألفاظ أشباه المعاني) وفصلا آخر عنوانه (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) .

ويتابع الأستاذ المبارك : وإذا صح أن الأصل من الحروف الثلاثة حرفان والثالث منوع للمعنى العام ومخصص له ، فأين يقع الحرفان من الثلاثة ؟ وأين يقع الحرف المضاف ؟ إن أكثر الأمثلة التي أوردها الباحثون تدل على أن الحرف المضاف هو الأخير . ولكنهم كذلك أوردوا أمثلة يقع فيها الحرف الثالث في وسط الكلمة الثلاثية أو في أولها .

ويعلق الأستاذ المبارك على هذا الموضوع باعلان موافقته على رأي الأستاذ العلايلي الذي يتلخص في استقرار العربية على الأساس الثلاثي واعتبار الأصل الثنائي مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجديا إلا ضمن هذا الاعتبار التاريخي (5) .

ويؤيد الأمير مصطفى الشهابي النظرية الثنائية فيقول : « والمرجح أن العربية الأولى تكونت مثل غيرها من اللغات ، من أصول قليلة ثنائية البناء ــ أي مركبة من حرفين ــ تحاكي الأصوات التي ينطق بها الانسان البدائي على مقتضى غريزته . ثم تعددت الكلم باضافة حرف أو أكثر الى الأصل الثنائي ... » (6) .

وميز الدكتور صبحي الصالح ، حين تطرق الى الثنائية وعلاقتها بالمناسبة الطبيعية ، بين الثنائية التاريخية والثنائية المعجمية . وأشار الى أن الثنائية قد اتخذت في أذهان القائلين بها صورا مختلفة وأشكالا متنوعة : فكانت الثنائية التاريخية ذات المقطع الواحد ، والثنائية المعجمية التي

---

(5) « فقه اللغة وخصائص العربية » ــ دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة السادسة / ص 87 ــ 101 .

(6) « المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث » ــ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ــ الطبعة الثانية 1965 / ص 11 .

ضعّف حرفها الثاني فأصبحت ثلاثية بوساطة الشدة . والثنائية المعجمية التي كرر مقطعها بكلا حرفيه فأصبحت رباعية بطريقة المضاعفة والتكرار (7) .

وهكذا نرى أن أول سؤال يطرحه المعجم العربي يدور حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة محاكاة أصوات الحيوان والطبيعة . ويعني ذلك أن دراسة المبدأ الذي يقوم عليه المعجم العربي تحيل إلى البحث في الطور الأول من نشأة الكلام الانساني . ويفضي هذا الأمر الى طرح سؤال ثان حول أسبقية الفعل العربي (أي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل) على المصدر .

3 ــ هل المصدر أسبق أم الفعل ؟

إن المبدأ الذي يقوم عليه المعجم العربي هو الرجوع الى الأصل الثلاثي (أو الرباعي) المجرد من حروف الزيادة . ويتطابق هذا الأصل مع صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر . ولدى البحث في المعجم العربي ، نجد أن علماء العربية مختلفون حول موضوع التقدم بين المصدر والفعل . فيرى علماء البصرة أن المصدر يتقدم ويجعلونه أصلا في الاشتقاق ، في حين يرى علماء الكوفة أن الفعل يتقدم ويجعلونه أصلا في الاشتقاق .

يقضي المنهج التاريخي العلمي الذي نتمسك به باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية ترتبط بالتفكير منذ نشأتها . ولم تنشأ اللغة مكتملة دفعة واحدة . كما لم يكتمل التفكير دفعة واحدة ، وتم اكتماله بالانتقال من المشخص المحسوس الى المجرد العام . لذا فإن اللغة قد نشأ أصلها وتشكل منه بالتدرج نظام لغوي مكتمل ، بشكل مواز لنشأة التفكير الانساني وتشكّل نظامه واكتماله . وعليه فإن الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الاخبار (التي تفيد الاسناد والزمن) أكثر تشخيصا من صيغة المصدر (التي لا تفيد الاسناد والزمن ، بل تفيد معنى الحدث مجردا عن فاعله وزمانه) . وبالتالي فإن الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي أسبق في الظهور من المصدر وهي الأصل في الاشتقاق .

ويسعى من يقولون بتقدم المصدر على الفعل الى عدم الاقرار بأن نظام المعجم العربي يبنى على أساس الانطلاق من الفعل . فيقولون إن نظام المعجم العربي يقوم على الرجوع الى المادة الأصلية أو الحروف الثلاثة الأصلية . ويزعمون أن تلك المادة الأصلية ليست نفس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر ، وإنما هي مادة مجردة يتم الحصول عليها بالاستنباط الصرفي الذي يحدده الاشتقاق الصغير ، وأن الأصل في الاشتقاق هو المصدر . ومثل هذا القول مرفوض ــ برأينا ــ لأنه يستند إلى الفصل بين اللغة والتفكير ووظيفة الاتصال . ونرى أن المادة الأصلية (أي الأصل المجرد من حروف الزيادة) التي يبنى عليها نظام المعجم العربي هي صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر .

كتب الأستاذ زكي الأرسوزي ما يلي : « إن الصوت يستدعي إليه الانتباه ويبعث في الوجدان

---

(7) « دراسات في فقه اللغة » ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ــ الطبعة السابعة / ص 141 ــ 154 .

معنى معا . فإذا كان الذهن العربي قد صنع أول ما صنع الأفعال بالشدة أو بالتكرار (نحو خرّ الماء خريرا ، أو خرخر) ثم اشتق الأسماء والمصادر من الأفعال ، فإن هذا لا يعني أن الفعل يتقدم على الحدس المعبر عنه بالمصدر إلا من حيث الظهور . أما من حيث الحقيقة فإن الحدس يتقدم على الفعل ، لأن الفعل ذاته ليس غير الحدس وقد انتشر في الزمان عندما تبناه الوجدان . ووجهة النظر هذه تحل المشكلة التي دار حولها الخلاف في القرون الوسطى ، مشكلة التقدم بين المصدر والفعل[8] .

إننا نوافق على النتيجة التي توصل إليها الأستاذ الأرسوزي التي تقول إن الفعل يتقدم على المصدر من حيث الظهور . هذا وكتب الدكتور ريحي كمال عن مميزات اللغات السامية ما يلي : « إن لمعظم الكلمات في هذه اللغات مظهرا فعليا ، حتى في الأسماء الجامدة والألفاظ الأعجمية المعربة . ويرى بعض علماء اللغة العربية أن المصدر الاسمي هو الأصل الذي تشتق منه أصول الكلمات والصيغ ، بيد أن هذا رأي خاطىء لأنه يجعل أصل الاشتقاق مخالفا لما هو مألوف في سائر اللغات السامية . وقد يكون أولئك العلماء متأثرين بالفرس في ذلك بحثوا في اللغة العربية بعقليتهم الآرية ، والمصدر الاسمي هو أصل الاشتقاق عند الآريين »[9] .

إننا نؤكد ما ذكره الدكتور ريحي كمال من أن الفعل هو أصل الاشتقاق في العربية وليس المصدر . ويؤكد ذلك أن المعجم العربي لا يقوم على الرجوع الى المصدر ، بل يقوم على الرجوع الى الأصل المجرد من حروف الزيادة . ولو كان الأصل في الاشتقاق هو المصدر ، لأوجب ذلك أن يبنى المعجم العربي على أساس الانطلاق من المصدر . ولكننا لا نؤكد اتهامه علماء العربية ــ الذين قرروا أن المصدر هو الأصل ــ بأنهم قد تأثروا بالفرس في ذلك، ونرى أن السبب الذي حملهم إلى هذا الاعتقاد يعود إلى أن دراستهم للموضوع لم تكن تاريخية (تطورية) . ولا بد لتحديد أسبقية المصدر أو الفعل من القيام بدراسة تاريخية (تطورية) للغة في ارتباطها بالتفكير ووظيفة الاتصال .

4 ــ أصل المعجم العربي وأصل الكلام الانساني[10] :

لما كان المعجم العربي يطرح تساؤلات عديدة حول وجود مناسبة طبيعية بين الأصوات وما تدل عليه نتيجة لمحاكاة أصوات الحيوان أو الطبيعة ، فإن دراسة المبدأ الذي يقوم عليه نظام المعجم العربي تحيل بالتالي إلى البحث في الطور الأول من نشأة الكلام الانساني . لذا يصبح من الطبيعي أن ننتقل الى عرض السؤال التالي : **هل تتوافر في الأصل الذي يبنى عليه نظام المعجم العربي الخصائص المميزة لأصل الكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته ؟**

أورد الأمير مصطفى الشهابي المثالين التاليين على اشتقاق الألفاظ من أصول ثنائية :

أ ــ لفظ (صِلْ) أحادي الهجاء ــ أي المقطع ــ مؤلف من حرفين متحرك

---

(8) « المؤلفات الكاملة » ــ المجلد الأول / ص 261 .

(9) « دروس اللغة العبية »، الطبعة الخامسة ، 1971 ــ 1972/ ص 26 ــ مديرية الكتب في جامعة دمشق .

(10) ارجع الى مقالتنا بعنوان « أصل الفعل العربي وأصل الكلام الانساني » المنشورة في مجلة (الموقف الأدبي) بدمشق العدد 122 ــ حزيران ــ 1981 .

فساكن . وهو صوت مادة يابسة اذا تحركت . فالعرب شددت اللام ، أي اشتقت من اللفظ الثنائي فعلا ثلاثيا يدل على هذا الصوت وهو الفعل (صَلَّ) . ثم زادت صادا ثانية ولاما ثانية أي كررت الثنائية (صل) فصار لها فعل رباعي هو الفعل (صَلْصَلَ) .

ب ــ لفظ (قَطْ) ثنائي يحاكي صوت القطع ، أي أنه ابانة بعض أجزاء الجسم عن بعض . فقد شددوا الطاء فكان لهم الفعل الثلاثي (قطّ) . وأبدلوا من الطاء الثانية عينا فصار الفعل (قطع) ولاما فصار (قطل) وفاء فصارت (قطف) ... الخ . وكلها تأتي بمعنى فصل بعض أجزاء الجسم عن بعض ، مع بعض تفاوت قليل في المعاني (11) .

وعن (منشأ اللسان العربي) كتب الأستاذ زكي الأرسوزي أن اللسان العربي اشتقاقي البنيان ، ترجع كافة كلماته إلى صور صوتية ــ مرئية ، مقتبسة مباشرة عن الطبيعة :

أ ــ عن الطبيعة الخارجية تقليدا للأصوات الحاصلة فيها ، مثال ذلك (ترّ) ، (فقّ) ، (خرّ) ، (خشّ) ، (زمّ) .

ب ــ أو عن الطبيعة الانسانية بيانا لمشاعرها ، مثال ذلك : (أنّ) ، (أهّ) (12) .

وهكذا يتبين أن الثنائية المؤلفة من مقطع صوتي واحد (صِلْ ، خَرْ) لا توجد إلا في الطبيعة نفسها . وحين يحاكي الانسان هذه الأصوات الطبيعية ليشير بذلك الى الفعل (صَلَّ ، خرّ) ينطق كل كلمة في مقطعين صوتيين (صَلْ + لَ ، خَرْ + رَ) . فالانسان ينطق أولا المقطع الصوتي الذي يقتبسه من الطبيعة ، وينطق بعده مباشرة مقطعا صوتيا جديدا يبتدعه بلفظ صوت صامت من نوع الصامت الذي توقف عليه في المقطع الأول ، لكنه يختلف عنه من حيث كون الثاني متحركا . فالصيغة اللغوية ــ الأصل لمثل هذه الأفعال (صلّ ، خرّ) تتألف من مقطعين صوتيين ، ولا تتوافر فيها بالتالي احدى الخصائص المميزة لأصل الكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته (أن تلفظ في مقطع صوتي واحد) .

واذا نطق الانسان أولا المقطع الصوتي الذي اقتبسه من الطبيعة ونطق بعده مباشرة نفس الصوتين الصامتين مع تحريك الثاني منهما (خَرْ + خَ + رَ) ، يكون بذلك قد أضاف الى الأصل الطبيعي (المؤلف من مقطع واحد) مقطعين صوتيين آخرين . وتتألف الصيغة اللغوية ــ الأصل لمثل هذه الأفعال (صَلْصَلَ ، خَرْخَرَ) من ثلاثة مقاطع

(11) « المصطلحات العلمية » ــ المجلد الأول ــ ص 11 .

(12) « المؤلفات الكاملة » ــ المجلد الأول ــ ص 71 .

صوتية ، ولا تتوفر فيها بالتالي أيضا تلك الخاصة المميزة لأصل الكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته (أن تلفظ في مقطع صوتي واحد) .

وبذلك نكون قد استبعدنا أن تصلح الصيغة اللغوية ذات الأصل الثنائي المضعف (خرّ) — التي صارت بالتضعيف ثلاثية الأصوات الصامتة — أصلا للكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته ، كما استبعدنا أيضا أن تصلح الصيغة اللغوية ذات الأصل الثنائي الذي كرر لفظه مع تحريك الصامت الثاني فيه (خرْخرَ) — التي صارت بالتكرار رباعية الأصوات الصامتة — أصلا للكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته . ولا يبقى أمامنا سوى البحث في صيغة أصل المعجم العربي المؤلف من ثلاثة أصوات صامتة لم تنشأ نتيجة لتضعيف لفظ الصامت الثاني في الأصل الثنائي ، لمعرفة هل يصلح أصلا للكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته .

تتصف أصوات الحيوان بأنها أصوات غير متميزة العناصر أي هي عبارة عن مجموعة من الأصوات المندمجة بعضها ببعض. وهذا يعني أن محاكاة الانسان لها توفر واحدة من الخصائص المميزة لأصل الكلام الانساني[13] في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته (أن يلفظ في مقطع صوتي واحد)، وتؤمن بالتالي انبثاق المعنى من الصوت عفويا في الموقف الكلامي الذي تستخدم فيه. هذا وقد أوجد الأستاذ عبد الحق فاضل قسما جديدا في علم اللغة سماه (الترسيس). والترسيس هو اعادة اللفظة الى جدتها الأولى في صورتها التي نطق بها الانسان تقليدا لأحد الأصوات المسموعة مثل محاكاة أصوات الطبيعة أو الحيوانات، مع تعقب المراحل التطورية التي قطعتها تلك اللفظة حتى وصلت الى الصورة التي نعرفها في إحدى اللغات[14]. وأورد الأستاذ فاضل أمثلة عن الترسيس في مقالته بعنوان «آثار حيوانية في اللغة العربية»[15].

إن بداية نشأة الكلام الانساني التي انطلقت من محاكاة أصوات الحيوان تقتضي أن تستخدم الصيغة اللغوية — الأصل في خبر غير ابتدائي، أي أن يكون كل من المتكلم والمخاطب قد سمع الفعل الذي يتم تقليد صوته وشاهد الحيوان الذي قام به. وبذا تتحقق في تلك الصيغة اللغوية — الأصل المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة (شحج، نزب) الخاصة الأولى المميزة لأصل الكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته (أن يكون مشخصا ومحددا بحاستي السمع والبصر بآن واحد).

هذا وأن تلك الصيغة اللغوية الأصل — صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث

---

(13) ارجع الى مقالتنا « الخصائص المميزة لأصل الكلام الانساني » المنشورة في مجلة (المعرفة) بدمشق العدد 229 / اذار 1981 . وقد حددنا فيها ثلاث خصائص (صفات موضوعية) يجب أن يتصف بها أصل أي كلام انساني .

(14) « مغامرات لغوية (ملكة اللغات) » دار العلم للملايين — بيروت .

(15) المنشورة في مجلة المعرفة بدمشق — عدد تشرين الأول 1962 .

المفرد المذكر (شحج، نزب) ــ هي الصيغة الوحيدة بين جميع صيغ الفعل الماضي في العربية التي لا تشتمل في تركيبها على ما يتصل بها لفظا للاشارة إلى المسند اليه. ويرجع السبب في ذلك ــ برأينا ــ الى أنها استخدمت في البدء في موقف سمع فيه كل من المتكلم والمخاطب الفعل الذي تم تقليد صوته وشاهد الحيوان الذي قام به. لذا فإن هذه الصيغة، على الرغم من أنها لا تشتمل في تركيبها على ما يتصل بها لفظا للاشارة الى المسند إليه، تتضمن من حيث المعنى ذهنيا (لا صوتيا) الاشارة إلى المسند إليه في الموقف الكلامي الذي استخدمت فيه، أي أنه يقدر في هذه الصيغة ذهنيا ما يفيد المسند إليه، وتفيد بالتالي معنى جملة. وعليه تتحقق في تلك الصيغة اللغوية ــ الأصل المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة الخاصة الثانية المميزة لأصل الكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته (أن يكون من الناحية الصوتية كلمة واحدة تفيد من ناحية المعنى كلاما تاما أي جملة).

واذا حللنا الفعلين (شحج) و (نزب) من الناحية الصوتية، نجد أن كلا منهما يتكون من ثلاثة مقاطع صوتية (شَ + حَ + جَ) (نَ + زَ + بَ) وهذا يعني أن الصيغة اللغوية ــ الأصل المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة تلفظ في ثلاثة مقاطع صوتية، أي أنها لا يمكن أن تكون محاكاة لأصوات الحيوان، ولا تصلح أن تكون أصلا للكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته لأنه لا تتوافر فيها الخاصة الثالثة المميزة لأصل الكلام الانساني في تلك المرحلة (أن تلفظ في مقطع صوتي واحد).

وما دام الأمر كذلك، فما هو السبب في أن نظام المعجم العربي قد بني انطلاقا من الأصل ثلاثي الأصوات الصامتة (الذي هو صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر)؟ ولماذا يعتبر ذلك الأصل خوارزما رياضيا لاشتقاق كلمات وصيغ جديدة منه ؟ ولماذا حافظ هذا الأصل الثلاثي على لحمته دون تغيير على مر القرون ؟ لا شك أن هناك سرا يرتبط بطبيعة الأصل العربي ثلاثي الأصوات الصامتة ! فما هو ذلك السر ؟! وكيف نكشفه؟.

من الرجوع الى الدراسات الصوتية في علم اللغة العربية وعلم اللغة العام وعلم اللغة المقارن، تبين لنا ما يلي :

1 ــ كشف الأكاديمي فارتوناتوف، في دراسة صوتية مقارنة للغات الهندية الأوربية القديمة، أن اللغة الهندية الأوربية ــ الأصل كانت تشتمل على الصوت (ə) القصير جدا والذي يتميز عن الصوت (a) القصير بأنه لا يشكل مقطعا صوتيا (16).

2 ــ توجد نظرية في علم اللغة العام (قال بها ف. ليمان) تفترض بأن اللغة الهندية الأوربية الأصل كانت تشتمل فقط على صوت صائت واحد غير محدد (أي لا يشكل مقطعا صوتيا وتنحصر وظيفته في تسهيل نطق الكلمات المؤلفة من أصوات صامتة). وترى تلك النظرية أن الأصوات الصامتة كانت كثيرة ومن بينها عدة أصوات حلقية (17).

---

(16) « الأعمال المختارة » ــ المجلد الثاني (بالروسية) ــ دار النشر أو تشبيدغيز ــ موسكو 1956 .

(17) « اللغات السامية » ــ القسم الثاني/الجزء الأول ــ مقالة غازوف ــ غينزبورغ « الجذر السامي ونظرية الصائت الوحيد » (بالروسية) ــ دار النشر « نأوكا » ــ موسكو 1965 .

3 ــ يذكّرنا ذلك بما نقله سيبويه على لسان الخليل حين قال : « وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به »[18] .

4 ــ وذكر ابن جني في (الخصائص) ما يلي : «حدثني أبو علي رحمه الله قال : دخلت هيتا وأنا أريد الانحدار منها الى بغداد. فسمعت أهلها ينطقون بفتحة غريبة لم أسمعها قبل فعجبت منها. وأقمنا هناك أياما إلى أن صلح الطريق للمسير فإذا أنني قد تكلمت مع القوم بها. وأظنه قال لي : إنني لما بعدت عنهم أنسيتها»[19].

5 ــ وأشار ابن جني الى الزمزمة في اللغة العجمية : «... قال وإنما خفي حال هذا في اللغة العجمية لما فيها من الزمزمة، يريد أنها لما كثر ذلك فيها ضعفت حركاتها وخفيت»[20].

6 ــ هذا وقد ذكر علماء العربية غمغمة قضاعة فقالوا : «وكانت قضاعة اذا تكلموا غمغموا، فلا تكاد تظهر حروفهم» ويعرفون الغمغمة بأنها الكلام الذي لا يبين.

من كل ذلك نستنتج **أن الصيغة اللغوية ــ الأصل المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة (شحج، نزب) كان الانسان البدائي القديم يلفظها في مقطع صوتي واحد لأنه يحاكي فيها أصوات** الحيوان، فلا تتميز فيها أصوات منفصلة بعضها عن بعض في مقاطع مستقلة، بل تتصل بكل صوت صامت فيها فتحة خفيفة تمكن فقط من النطق به.

ويدعم ما ذهبنا إليه اشارة علماء العربية الأوائل إلى أن الفتحة أخف الحركات الثلاث. كما أن الرجوع الى أوزان الفعل الثلاثي يرجع الاستنتاج الذي وصلنا إليه. فللفعل الثلاثي ستة أوزان هي :

1 ــ باب (نصر ــ ينصر)
2 ــ باب (ضرب ــ يضرب)
3 ــ باب (فتح ــ يفتح)
4 ــ باب (فرح ــ يفرح)
5 ــ باب (كرم ــ يكرم)
6 ــ باب (حسب ــ يحسب).

ويتدرج هذا الترتيب للأوزان حسب كثرة الأفعال في كل باب. فأكثر الأبواب أفعالا باب نصر، فضرب، ففتح، ففرح، فكرم. وأقلها باب حسب. يبلغ مجموع حركات الأصوات الصامتة في أوزان الفعل الثلاثي (18) حركة ــ منها (15) حركة فتح، وحركتا كسر، وحركة ضم واحدة. واذا أخذنا بالاعتبار أن الكسرة والضمة لا تظهران إلا في أبواب (فرح، كرم، حسب) ــ التي تتميز بقلة أفعالها من ناحية، وبأن غالبية الأفعال التي تدخل فيها ذات معنى عام ومجرد من ناحية أخرى ــ **يتأكد لنا أن الفتحة هي أولى الحركات ظهورا في النظام الصوتي للعربية. لذا اقترحت اعتبار حركة الفتحة أصلا بالنسبة للحرف العربي الذي يشير الى صوت صامت ولا حاجة بالتالي لتثبيتها في الكتابة. وطالبت بالزام شكل جميع الحروف الصامتة الساكنة أو المتحركة بغير الفتحة في جميع الكلمات.** ودعوت إلى اعتماد هذه الطريقة في تعليم

(18) « كتاب سيبويه » ج 2 ، آخر (باب حروف البدل من غير أن تدغم حرفا في حروف وترفع لسانك من موضع واحد) .
(19) « الخصائص » حققه محمد علي النجار ، دار الهدى ــ بيروت ، ج 1/ص 92 .
(20) « الخصائص » ــ ج 1 / ص 91 .

التلاميذ مبادىء الكتابة والقراءة العربية وفي صفوف محو الأمية للكبار (21).

إن النتيجة العلمية التي توصلنا اليها والتي تقول أن الصيغة اللغوية ــ الأصل المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة (شحج، نزب) كانت تلفظ في مقطع صوتي واحد، تشير الى أن تلك الصيغة كانت تلفظ كذلك لأنها كانت تحاكي أصوات الحيوان. ويعني ذلك أنه تتوافر في الصيغة اللغوية ــ الأصل المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة الخاصة الثالثة المميزة لأصل الكلام الانساني. وهكذا ثبت لنا أن الصيغة اللغوية ــ الأصل في المعجم العربي المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة (شحج، نزب) هي أصل الكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته، لأنها تشتمل على الصفات الموضوعية التي يتصف بها أصل الكلام الانساني في تلك المرحلة. وبما أن نظام المعجم العربي يقوم بشكل أساسي على الرجوع الى الأصل ثلاثي الأصوات الصامتة، فمن الطبيعي أن يبرز السؤال التالي : هل ظهرت جميع الأصول الثلاثية في المعجم العربي نتيجة لمحاكاة الانسان أصوات الحيوان ؟ ويرتبط بهذا السؤال سؤالان آخران ــ الأول : أين تقع في نظام المعجم العربي صيغ الأصول التي ظهرت في المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني نتيجة لمحاكاة الانسان أصوات الطبيعة ؟ والثاني : أين تقع في نظام المعجم العربي صيغ الأصول التي ظهرت في الطور الثاني لنشأة الكلام الانساني نتيجة اقامة علاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول ؟.

إن الدراسات اللسانية الحديثة تطمح الى تقديم التفسيرات العلمية لجميع الظواهر اللغوية. ونعتقد أن المنهج التاريخي العلمي ــ الذي استنبطناه من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية ــ يمكننا من تقديم التفسيرات العلمية لنظام المعجم العربي. وكنا قد دعونا الى دراسة المادة اللغوية للعربية المتوفرة لدينا على مر القرون، باستخدام المنهج التاريخي العلمي، من أجل الكشف عن التاريخ الحقيقي للأمة العربية ولغتها.

يقضي المنهج التاريخي العلمي باعتبار الصيغة ــ الأصل للكلام الانساني صيغة لغوية حقيقية تؤدي وظيفة اتصال. ويرفض القول بأنها صيغة مثالية مفترضة وغير مرتبطة بوظيفة الاتصال. كما يوجب الاهتمام لدى دراسة النظام اللغوي بما هو عام ومطرد دون إهمال الشواذ والاستثناءات، لأنها يمكن أن تكون شواهد على حالات سابقة أو بدايات لتطور جديد.

تحدد قواعد الاشتقاق الصغير (الذي يتم بحثه في علم الصرف) كيف يتم الحصول على الأصل المجرد من حروف الزيادة الذي يقوم عليه نظام المعجم العربي. وتميز تلك القواعد بين نوعين من الأصل :

أ ــ الأصل السالم (وهو الخالي من التضعيف والهمز والاعلال).

ب ــ الأصل غير السالم (الذي يكون مهموزا أو مضعفا من جهة، وصحيحا أو معتلا من جهة أخرى).

ما هو السبب في التمييز بين الأصل السالم والأصل غير السالم ؟ وهل صيغة الأصل في المعجم العربي هي دوما صيغة لغوية حقيقية تؤدي وظيفة اتصال ؟

(21) ارجع الى مقالتي « ازدواجية اللغة العربية وكيفية الخروج منها » المنشورة في مجلة (المعرفة) بدمشق ــ العدد المزدوج 222 ــ 223 (اب ــ أيلول) 1980 .

من أجل الحصول على الأصل المجرد من حروف الزيادة، توجب قواعد الاشتقاق الصغير ــ بالنسبة للأصل غير السالم ــ رد الحرف المعل أو المبدل فيه الى أصله وفك الادغام فيه (قال ــ قَوَل، مدّ ــ مَدَد). فهل يعني ذلك أن الصيغ ــ الأصول غير السالمة هي صيغ لغوية حقيقية، في حين أنها تعتبر بعد رد حروف العلة الى أصلها وفك الادغام صيغا مثالية مفترضة (غير حقيقية) وغير مرتبطة بوظيفة الاتصال ؟.

قد يتوهم بعض الباحثين أن صيغ الأصول غير السالمة (التي ردت حروف العلة فيها الى أصلها وفك ادغامها) كانت في وقت مضى صيغا لغوية حقيقية ثم انصُرف عنها فيما بعد. أفرد ابن جني فصلا في «الخصائص» للاجابة عن هذا السؤال بعنوان : (باب في مراتب الأشياء وتنزيلها تقديرا وحكما لا زمانا ووقتا) [22]. قال فيه : «هذا الموضع كثير الايهام لأكثر من يسمعه، لا حقيقة تحته. وذلك قولنا : الأصل في قام قوَم، وفي باع بيَع، وفي طال طوُل، وفي خاف ونام وهاب، خوِف ونوِم وهيِب، وفي شد شدد... فهذا يوهم أن هذه الألفاظ وما كان نحوها ــ مما يُدّعى أن له أصلا يخالف ظاهر لفظه ــ قد كان مرة يقال. حتى أنهم كانوا يقولون في موضع قام زيد : قوَم زيد، وكذلك نوِم جعفر، وطوُل محمد، وشدد أبوك يده، واستعدد الأمير لعدوّه، وليس الأمر كذلك بل ضده. وذلك أنه لم يكن قط مع اللفظ به إلا على ما تراه وتسمعه.

وإنما معنى قولنا : إنه كان أصله كذا : أنه لو جاء مجيء الصحيح ولم يُعلّل لوجب أن يكون مجيئه على ما ذكرنا. فإما أن يكون استعمل وقتا من الزمان كذلك، ثم انصُرف عنه فيما بعد الى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده أحد من أهل النظر... ».

لقد رفض ابن جني بشكل قاطع القول بأن صيغ الأصول غير السالمة (التي ردت حروف العلة فيها الى أصلها وفك ادغامها) كانت في وقت ما صيغا لغوية حقيقية . ويعني ذلك أن التمييز بين نوعين من الأصل في نظام المعجم العربي يرتبط قبل كل شيء بوظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة . ونميز بهذا الصدد ثلاث صيغ :

أ ــ صيغة الأصل السالم (شحج) ــ هي صيغة لغوية حقيقية (صيغة الفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر) تؤدي وظيفة اتصال ، وهي في الوقت نفسه صيغة الأصل في نظام المعجم العربي .

ب ــ صيغة الأصل غير السالم (قال ، مدّ) ــ هي صيغة لغوية حقيقية (صيغة الفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر) تؤدي وظيفة اتصال ، ولكنها ليست صيغة الأصل في نظام المعجم العربي .

ج ــ صيغة الأصل غير السالم الذي ردت حروف العلة فيه الى أصلها وفك الادغام فيه (قَوَل ، مدد) ــ هي صيغة غير حقيقية (مثالية مفترضة) وغير مرتبطة بوظيفة الاتصال ، ولكنها تعتبر صيغة الأصل في نظام المعجم العربي .

أثبتنا أعلاه أن الصيغة ــ الأصل في المعجم العربي المؤلفة من ثلاثة أصوات صامتة (التي كانت تحاكي أصوات الحيوان والمستخدمة في خبر غير ابتدائي) هي أصل الكلام الانساني في المرحلة الأولى

(22) « الخصائص » ج 1 / ص 256 ــ 257 .

من الطور الأول لنشأته . ويعني ذلك أنه كان يتوافر في تلك الصيغة أمران في آن واحد :

أ ــ كونها صيغة لغوية حقيقية تؤدي وظيفة اتصال .

ب ــ كونها صيغة الأصل في نظام المعجم العربي .

وبما أن هذين الأمرين لا يتوافران معا إلا في صيغة الأصل السالم ، نستنتج أن الصيغة ــ الأصل في المعجم العربي المؤلفة من ثلاثة صوامت (التي كانت تحاكي أصوات الحيوان والمستخدمة في خبر غير ابتدائي ، والتي كانت لذلك أصلا للكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته) كانت بالضرورة أصلا سالما (أي خالية من التضعيف والهمز والاعلال) . ونستنتج بالتالي أن الأصول الثلاثية في المعجم العربي لا تحاكي جميعها أصوات الحيوان ، ولا يحاكي منها أصوات الحيوان سوى الأصول الثلاثية السالمة . وبذا نكون قد أجبنا عن السؤال الأول الذي طرحناه أعلاه .

ونخلص من ذلك إلى التأكيد أن نظام المعجم العربي يقوم على اعتماد مبدأين :

الأول ــ أصل الاشتقاق صيغة لغوية حقيقية ــ صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر (شحج) .

الثاني ــ أصل الاشتقاق ليس صيغة لغوية حقيقية ، بل صيغة مفترضة (قَوَل ، مَدَد) .

لقد بينا أعلاه أن المبدأ الأول لنظام المعجم العربي يعكس المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأة الكلام الانساني ، حين كان ظهور الأصل مرتبطا بمحاكاة الانسان أصوات الحيوان .

وننتقل الآن الى بحث المبدأ الثاني لنظام المعجم العربي ــ اعتماد صيغة مفترضة أصلا للاشتقاق . ويجب في البداية بيان السبب الذي جعل المعجم العربي يقوم على اعتماد هذين المبدأين بآن واحد (أصل ــ صيغة لغوية حقيقية ، وأصل ــ صيغة مفترضة) . ويتبادر إلى الذهن بهذا الصدد السؤال التالي : لماذا لم يقم نظام المعجم العربي على اعتماد أصل واحد (صيغة لغوية حقيقية فقط ، أو صيغة مفترضة فقط) ؟ .

إن نشأة الكلام الانساني مرت بطورين [23] . يتميز الطور الأول بأنه توجد في الصيغة اللغوية ــ الأصل علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة محاكاة الانسان أصوات الحيوان والطبيعة . ويتميز الطور الثاني بأنه لا توجد في الصيغة اللغوية ــ الأصل علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول ، بل العلاقة اصطلاحية . ويعني ذلك أنه ظهرت صيغ لغوية متعددة ــ أصول للكلام الانساني في مراحل زمنية متفاوتة . وقد تطور من كل أصل من تلك الأصول بطريق التوليد والاشتقاق عش من الكلمات والصيغ الجديدة التي تشترك مع الأصل في المعنى العام . وتشكل النظام اللغوي واكتمل من تطور تلك الأصول . لذا فإن نظام المعجم العربي لم ينشأ مكتملا طفرة واحدة ، بل نشأ واكتمل تدريجيا كنظام من العلاقات التوليدية بين الأصول (المتعددة والتي ظهرت في مراحل زمنية متفاوتة) وبين الكلمات والصيغ الجديدة المشتقة منها والتي تدخل في أعشاشها . وهذا هو السبب في

(23) ارجع الى مقالة « مراحل نشأة الكلام الانساني » المشار إليها سابقا .

أن نظام المعجم العربي لا يقوم على اعتماد أصل واحد فقط .

يوجب المنهج التاريخي العلمي عدم الاكتفاء بوصف النظام اللغوي في حالته في فترة زمنية محددة ، بل يوجب وصفه في تطوره أيضا . ولكن كيف يمكن القيام بذلك عمليا ؟ إن الأشكال في الهندسة المستوية (التي تشتمل على بعدين : الطول والعرض، يتم رسمها على الورق بسهولة. أما الاشكال في الهندسة الفراغية (التي تشتمل، إضافة إلى الطول والعرض ، على البعد الثالث : العمق) فيتم لدى رسمها على الورق الاشارة إلى البعد الثالث بخط مائل منقط . ولدى رسم خريطة العالم على الورق ، تتم الاشارة الى كروية الأرض بطريقة خاصة معروفة في علم المصورات الجغرافية . **فكيف يمكن أن يحافظ النظام اللغوي على اتساقه حين يشتمل على ما يصف حالته في فترة زمنية محددة ، وعلى ما يشير في الوقت نفسه الى تطوره ؟** وبصيغة أخرى : **كيف يتم ادخال عنصر الزمن لدى وصف النظام اللغوي ؟** .

بيّنا أن المعجم العربي ليس مجرد قائمة من المفردات ــ الأصول ، بل هو نظام كامل من العلاقات التوليدية .بين الصيغ ــ الأصول في الاشتقاق والكلمات والصيغ الجديدة المشتقة منها والتي تدخل في عشها . كما أثبتنا أن صيغة أصل المعجم العربي الثلاثي السالم هي أصل للكلام الانساني في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته . واستنادا الى المنهج التاريخي العلمي ، نرى أن الصيغة ــ الأصل في الاشتقاق كانت بالضرورة :

أ ــ صيغة لغوية حقيقية .

ب ــ الصيغة الأسبق في الظهور تاريخيا (زمنيا) من جميع صيغ الكلمات التي تدخل في العش الواحد .

وبما أن الأصل الثلاثي السالم كان صيغة لغوية حقيقية تؤدي وظيفة اتصال (صيغة الفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث المفرد المذكر) ، وكان الصيغة الأسبق في الظهور تاريخيا (لأنه كان أصلا للكلام الانساني ظهر في المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأته) ، لذلك كان الصيغة ــ الأصل لاشتقاق كلمات وصيغ جديدة منه تدخل في عشه . وعليه فإن **المبدأ الأول الذي قام عليه المعجم العربي (الأصل الثلاثي السالم) يعكس المرحلة الأولى من نشأة اللغة العربية ، كما يعكس في الوقت نفسه المرحلة الأولى من نشأة الكلام الانساني** .

نعود الى السؤالين المطروحين سابقا : أين تقع في نظام المعجم العربي صيغ الأصول التي ظهرت في المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني نتيجة لمحاكاة الانسان أصوات الطبيعة ؟ وأين تقع في نظام المعجم العربي صيغ الأصول التي ظهرت في الطور الثاني من نشأة الكلام الانساني حين كانت العلاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول ؟ ونعيد صياغتهما في سؤال واحد هو كالتالي : **كيف تم ادخال الأصول التي ظهرت بعد المرحلة الأولى من الطور الأول لنشأة الكلام الانساني في نظام المعجم العربي ، مع المحافظة على اتساق نظامه ؟** .

تبيّن لنا أن المعجم العربي بني منذ البداية على اعتماد صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر أصلا للاشتقاق . واقتضت المحافظة على اتساق نظام المعجم العربي الاستمرار في اعتماد تلك الصيغة أصلا للاشتقاق . وحين لم تكن صيغة

الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر هي الصيغة الحقيقية ــ الأصل التي ينطلق منها الاشتقاق ، جرى افتراض صيغة مثالية على أنها أصل للاشتقاق وذلك بادخال بعض التغييرات على صيغة الفعل الماضي الخاصة بالشخص الثالث المفرد المذكر .

اذا كان الخط المائل المنقط يكشف لنا البعد الثالث لدى رسم الأشكال في الهندسة الفراغية على الورق ، **فكيف نستطيع تحديد الصيغة الحقيقية ــ الأصل للاشتقاق في حالة افتراض وجود صيغة مثالية ــ أصل للاشتقاق في نظام المعجم العربي ؟** وبعبارة أخرى : **ما هي السمات التي تشير إلى البعد الزمني في نظام المعجم العربي ؟**

تنقلنا الاجابة عن هذا السؤال إلى عرض نظرتنا الجديدة الى المعجم العربي .

5 ــ نظرة جديدة الى المعجم العربي :

قررنا أعلاه أن المبدأ الأول الذي يقوم عليه المعجم العربي (اعتماد صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر أصلا للاشتقاق) يعكس المرحلة الأولى في نشأة اللغة العربية ونشأة الكلام الانساني في الوقت نفسه . لذا فإن دراسة نظام المعجم العربي ترتبط بدراسة مراحل نشأة اللغة العربية ونشأة الكلام الانساني . ويعني ذلك أن نظام المعجم العربي يمكن أن يعكس أيضا بقية المراحل في نشأة اللغة العربية ونشأة الكلام الانساني . **لذا يجب أن يدرس نظام المعجم العربي على ضوء الأطوار والمراحل التي مرت بها نشأة الكلام الانساني .**

وتفضي مثل تلك الدراسة إلى نظرة جديدة إلى المعجم العربي تنطلق من اعتماد المنهج التاريخي العلمي في الدراسات اللغوية .

إننا نرى ، انطلاقا من المنهج التاريخي العلمي ، أن القاسم المشترك من حيث المعنى بين الصيغة الحقيقية ــ الأصل التي ينطلق منها الاشتقاق وبين جميع الكلمات والصيغ المشتقة منها ، والتي تدخل في عشها هو وجود نفس العدد من الصوامت وبنفس الترتيب دون تغيير أو نقص . وعليه **فإن الصيغة الحقيقية ــ الأصل للاشتقاق هي الصيغة التي يتوافر فيها ما يلي :**

أ ــ أن تكون صيغة حقيقية .

ب ــ أن تكون الصيغة الأسبق في الظهور تاريخيا .

ج ــ أن تتألف بنيتها فقط من الحد الأدنى المشترك (بين جميع الكلمات والصيغ التي تدخل في العش الواحد) من الصوامت وبنفس الترتيب .

ونستنتج من ذلك أن القانون الذي يمكننا من اكتشاف الصيغة الحقيقية ــ الأصل للاشتقاق في العش الواحد هو التالي : **إن البنية الحقيقية التي تتألف فقط من الحد الأدنى المشترك من الصوامت في العش الواحد هي بالضرورة الصيغة الحقيقية ــ الأصل للاشتقاق فيه ، اذا كانت الصيغة الأسبق في الظهور تاريخيا .**

ويؤدي تطبيق قانون النظرة الجديدة الى المعجم العربي ، لدى دراسة نظام المعجم العربي على ضوء الأطوار والمراحل التي مرت بها نشأة الكلام الانساني ، الى الكشف عن المراحل التالية في تشكل نظام المعجم العربي واكتماله :

1 ــ **بني المعجم العربي على اعتماد صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر أصلا للاشتقاق . وكانت تلك الصيغة في**

المرحلة الأولى من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني ثلاثية الأصوات الصامتة وسالمة (أي خالية من التضعيف والهمز والاعلال) لأنها كانت تحاكي أصوات الحيوان .

2 ــ وفي المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني ، ظهرت صيغتان لغويتان جديدتان ــ أصلان للكلام الانساني نتيجة لمحاكاة الإنسان أصوات الطبيعة . كانت الصيغة الأولى ــ الأصل هي صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر التي تتألف من ثلاثة صوامت تلفظ في مقطعين صوتيين (خرّ ، صلّ) . وتوصف هذه الصيغة في علم العربية بأنها ذات أصل ثنائي ضعّف الصامت الثاني فيه . وكانت الصيغة الثانية ــ الأصل هي صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر التي تتألف من أربعة صوامت ــ تلفظ في ثلاثة مقاطع صوتية (خرخر ، صلصل) . وتوصف هذه الصيغة في علم العربية بأنها ذات أصل ثنائي كرر لفظ صامتيه .

ولما كانت الصيغة الجديدة الأولى ــ الأصل (خرّ) ثلاثية الأصوات الصامتة ، وجب اعتبارها كما هي أصلا في المعجم العربي . ويجب ألا يخدعنا قول علماء العربية إن الأصل في (خرّ ← خرر) أي بفك الادغام ، لأن الصيغتين ثلاثيتا الأصوات الصامتة . وينطلق المبدأ الأساسي في المعجم العربي من اعتبار الصوامت وحدها دون اعتبار حركتها أو سكونها . ويعكس المعجم العربي في ذلك خصائص النظام الصوتي للعربية التي تتجلى في أن الحركات (والسكون) ليس لها وجود منفصل عن الصوامت . ونرى بهذا الصدد أن الابقاء على صيغة (خرّ) أصلا أصح ، لأن هذه البنية بهذا الشكل المضعف تشير إلى البعد الزمني (أي أنها تشير الى أنها ظهرت في المرحلة الثانية من الطور الأول من نشأة الكلام الانساني) . ونعتقد أن السبب الذي دفع علماء العربية الى القول (بأن الأصل هو الصيغة التي يفك الادغام فيها) يعود الى أن صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر التي اعتمدت منذ البداية أصلا للاشتقاق في المعجم العربي كانت مؤلفة من ثلاثة صوامت متحركة بالفتحة جميعها لأنها كانت تحاكي أصوات الحيوان . فرأوا أن المحافظة على اتساق النظام في المعجم العربي تقتضي أن يكون الأصل صيغة مؤلفة من ثلاثة صوامت جميعها متحركة (خَرَرَ) . لذا عمدوا الى فك الادغام ليتخلصوا بذلك من سكون أحد الصوامت الثلاثة (خَرْرَ) .

وبما أن الصيغة الجديدة الثانية ــ الأصل (خرخر) كانت رباعية الأصوات الصامتة ، فقد اعتبرت كما هي أصلا في المعجم العربي . وبقيت بنيتها الرباعية تشير الى البعد الزمني (أي تشير الى أنها ظهرت في المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني) . وبذا أصبح نظام المعجم العربي يقوم على اعتماد الأصل الرباعي الى جانب الأصل الثلاثي .

3 ــ وفي الطور الثاني من نشأة الكلام الانساني ، ظهرت صيغة

جديدة ــ أصل للكلام الانساني هي صيغة الأمر التي تتميز بأن العلاقة فيها اصطلاحية بين الصوت والمدلول . وكانت تلك الصيغة هي الأصل في اشتقاق كلمات وصيغ جديدة منها تدخل في عشها . وللمحافظة على اتساق نظام المعجم العربي ــ الذي يقوم على اعتماد صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر (المؤلفة من ثلاثة أو أربعة صوامت) أصلا للاشتقاق ــ تمّ في أغلب الأحيان افتراض وجود صيغة مثالية ــ أصل للاشتقاق عن طريق ادخال بعض التغييرات على صيغة الماضي المشتقة بدورها من صيغة الأمر الأصلية .

ومن أجل الكشف عن السمات التي تشير إلى البعد الزمني في نظام المعجم العربي ، سنقوم في القسم الثاني من هذه المقالة بدراسة مفصلة لنظام المعجم العربي على ضوء الأطوار والمراحل التي مرت بها نشأة الكلام الانساني ، وذلك لتحديد المبادىء التي اعتمدها المعجم العربي حسب التسلسل الزمني لظهورها .

(يتبع)